

الوعي والوعي الممكن في رواية " قلوب على الأسلاك "

الدكتور عبد الله أبو هيف*
المغيرة الهويدي **

(تاريخ الإيداع 25 / 3 / 2009 . قبل للنشر في 13 / 7 / 2009)

□ الملخص □

يهدف البحث إلى دراسة الوعي ، وتختص بتحليل الوعي الممكن في رواية " قلوب على الأسلاك " لعبد السلام العجيلي، وقد اعتمد البحث "المنهج البنوي التكويني" في تحديده لأشكال الوعي التي تمثل وعي طبقة اجتماعية لظروفها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفكرية ، وتعبّر عن فهمها لواقعها وسعيها إلى تغييره دون أن تفقد طابعها الطبقي الذي يميزها عن غيرها من الطبقات الاجتماعية .
تسعى الدراسة إلى الوقوف على ملامح الطبقة البرجوازية في تعبيرها عن فهمها لطبيعة المرحلة التاريخية ، عشية الانفصال بين سورية ومصر . حيث تظهر الرواية موقف البرجوازية السورية من الوحدة ، واستشرافها واقع الانفصال بما يدفعها للخروج من المأزق بالهروب بوصفه تعبيراً عن عجزها فشلتها في تأصيل وجودها في الوطن ، ليكون الهروب هو الحل الأفضل للحفاظ على جوهرها ، وطريقة مناسبة للتكيف مع الواقع الجديد

الكلمات المفتاحية : عبد السلام العجيلي ، قلوب على الأسلاك ، الوعي الممكن .

* أستاذ مساعد - قسم اللغة العربية - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة تشرين - اللاذقية - سورية .
** طالب دراسات عليا (ماجستير) - قسم اللغة العربية - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة تشرين - اللاذقية - سورية .

Conscience and Possible Conscience in Al-Ojayli's *Quloob ala AL-Aslaak* Novel

Dr. AbedAllah Abu Haeef *
AL-Moghera AL- Hwedy**

(Received 25 / 3 / 2009. Accepted 13 / 7 / 2009)

□ ABSTRACT □

The purpose of this research is to study conscience and possible conscience in the novel "Quloob ala AL-Aslaak" by Abed AL-Salam AL- Ojayli. This study depends on "Genetic Structuralism" for identifying the forms of this consciousness which represent the awareness of a social class of its intellectual, economical, political, and social conditions. In so doing, it seriously seeks to change this status without losing its social class prototype. This study focuses on the characteristics of the bourgeois class that expresses its understanding of the nature of the historical phase reflecting separation between Syria and Egypt. This novel shows the point of view of Syrian bourgeoisie about unity, and its prediction about the reality of unity, which drives the bourgeoisie to find a way out of this crisis by escaping, being an expression of its failure to make its presence felt on home ground.

Keywords: Abed AL-Salam AL-Ojayli, Quloob ala AL-Aslaak, Possible Conscience

* Associate Professor, Department of Arabic, Faculty of Arts and Humanities, Tishreen University, Lattakia, Syria.

**Postgraduate Student, Department of Arabic, Faculty of Arts and Humanities, Tishreen University, Lattakia, Syria.

مقدمة:

استطاعت الرواية في الأدب العربي أن تحظى في فترةٍ وجيزةٍ باهتمامٍ أدبي أكثر من أي نوعٍ أدبي آخر ، وذلك لأسبابٍ عديدةٍ أهمها قدرتها على الهضم والتمثل ، والإفادة من الفنون الأدبية الأخرى ، والقدرة الواسعة على التعبير عن الإنسان ونظرته تجاه الواقع والمجتمع والوجود .

وإذا كانت الرواية العربية السورية محدودة الحجم والعمق في البدايات ، وتفقر إلى التماسك والإفناع ، فقد تمكنت من تجاوز ذلك في مراحل تطورها اللاحقة ، ومعالجة الكثير من القضايا الجوهرية على اختلاف أبعادها الاجتماعية والوطنية والإنسانية . وقد تيسر لها أن ترتقي بفضل اهتمام النقد وتطور أدواته ، وإبداع الروائيين الذين استطاعوا أن يجعلوا من الخطاب الروائي وسيلة للتواصل الحضاري ، ومعبراً عن وعي الطبقة الاجتماعية التي تسلط الرواية الضوء عليها .

أهمية البحث وأهدافه:

يسعى البحث إلى دراسة الوعي الممكن في رواية " قلوب على الأسلاك " لعبد السلام العجيلي ، وذلك في إضاءة لواقع الطبقة البرجوازية السورية في عهد الوحدة ، وعشبة الانفصال بين سورية ومصر . ويهدف إلى دراسة بنية الطبقة البرجوازية بوصفها طبقة اجتماعية تسعى إلى التغيير انطلاقاً من ظروفها المعيشية والاجتماعية والفكرية كافة ، دون أن يكون في سعيها هذا تهديد لجوهرها الطبقي والاجتماعي الذي يميزها من غيرها من الطبقات الاجتماعية . وتقف الدراسة عند محاولات الطبقة المحافظة على كيانها في ظل المتغيرات السياسية والاجتماعية التي كانت تعصف في البلاد في تلك الفترة .

منهجية البحث:

يعتمد البحث " المنهج البنوي التكويني " الذي تبلور بشكلٍ أساسي على يد " لوسيان غولدمان " ويقوم على الربط بين بنية العمل الأدبي وبنية طبقة اجتماعية معينة ، وذلك عبر دراسة التناظر والتماثل بين البنيتين ، ويقتصر البحث على دراسة الوعي الممكن فقط بوصفه ممثلاً لرؤيا الطبقة الاجتماعية إلى العالم ، وفهمها لظروفها وتكيفها معها ، وسعيها إلى تجاوزها ، ولا يبحث في الوعي الفعلي الذي يصور واقع الطبقة الاجتماعية وفهمها لظروفها ، ويكتفي بالإشارة إليه في مواضع مختلفة من البحث ، وذلك في سعينا إلى تحديد مجال البحث وتضييقه بما يسهم في إضاءة الوعي الممكن المستند في أساسه إلى الوعي الفعلي .

الوعي الممكن في رواية " قلوب على الأسلاك " :

إنّ الوعي الذي يميز طبقة ما حسب تحديد لوسيان غولدمان "Lucien Goldman" يتخذ شكلين مميزين هما؛ الوعي الفعلي والوعي الممكن . يتعلق الوعي الفعلي بالمشكلات والظروف التي تخضع لها الطبقة ، وفهم العلاقات التي تربطها بغيرها من الطبقات الاجتماعية . كما يمثل الطبقة بكل تصوراتها ومرجعياتها المختلفة. وهو ((الوعي الناجم عن الماضي ومختلف حيثياته وظروفه وأحداثه . فكل مجموعة اجتماعية تسعى إلى فهم

الواقع انطلاقاً من ظروفها المعيشية والاقتصادية والفكرية والدينية والتربوية (([1]. لكنّ هذا الوعي ليس ثابتاً أو جامداً بل متحرّك ومتغير في الطبقة التي تشكله ، وهذا التغيّر يولّد أبعاداً على هيئة تطلّعات تسعى إليها الطبقة ، مما يؤدي إلى تشكّل الوعي الممكن الذي يتعلق بتلك التطلّعات والتصورات وإمكانية التغير في بنية الطبقة ذاتها ، التي تحاول أن تقيم نوعاً من التوازن مع غيرها من خلال سعيها هذا . ولكنّ هذا التغير في بنيتها لا يعني فقدانها لطابعها المميز لها ، بل ((ما يمكن أن تفعله طبقة اجتماعية ما، بعد أن تتعرض لمتغيرات مختلفة دون أن تفقد طابعها الطبقي)) [2]. ويتجسّد الوعي الممكن في العمل الأدبي بشكل متفاوت ، وكلّما كان العمل الأدبي أكثر تلاحماً كلّما عبّر عن رؤيا تلك الطبقة إلى العالم، وعندما تزداد درجة التماسك في تجسيد الوعي الممكن يصبح ذاته هو الرؤيا للعالم. يتجلّى الوعي الممكن في الرواية بما تمثّله من سعي طبقة اجتماعية ما إلى تحقيق أهدافها، وما يحدث فيها من تغيّرات لا تمسّ طابعها الطبقي المميز لها، وبذلك فإنّ ارتباط الوعي الفعلي الذي تعبّر عنه الطبقة بتصرفاتها وسلوكها وعلاقتها مع الطبقات الاجتماعية بالوعي الممكن قائم ووثيق، إلا أنّ الوعي الممكن ((هو المحرك الفعّال لفكر الجماعة ، بل هو الذي يرسم مستقبلها ، ويعطيها صورتها الحيويّة في الحاضر ، والمستقبل)) [3]، وإنّ كان الوعي الممكن يرتبط بالأشخاص غير العاديين كالفلاسفة و الأدباء والسياسيين، فإنّ أبناء الطبقة على اختلاف مواقعهم هم الذين يعبرون عن الوعي الممكن الذي تقدّمه الرواية بوصفه نتيجة للصراع القائم الذي تدور رحاه في بنيتين متناظرتين؛ الأولى بنية العمل الروائي ، والثانية بنية الطبقة الاجتماعية التي تمثّلها الرواية ، وذلك عبر وسيطٍ قادرٍ على إيجاد هذا التماثل والتناظر وهو المؤلف المبدع . وهذا ما يقودنا إلى التأكيد على أهميّة ربط الرواية بالوعي الممكن للطبقة ، والذي يمكن عدّه سعيّاً مرتبطاً برؤاها الخاصة .

تشكّل روايات العجيلي تجسيداََ جيّداً لسعي طبقة اجتماعية ما إلى تغيير واقعها وفهمه بطريقة تساعدها على التغيير ؛ فرواياته الأولى " باسمه بين الدموع " (1958) تحاول رصد الفساد الاجتماعي والسياسي الذي غمر المجتمع السوري في الخمسينيات من القرن العشرين ، وترصد وعي الطبقة الاجتماعية التي تنتمي إليها الشخصيات. وتسلّط رواية " المغمورون " (1979) الضوء على طبقة الفلاحين الذين تغمر المياه أراضيهم بعد إقامة سد الفرات، فيضطرون إلى الرحيل مرغمين عنها إلى مناطق أخرى ، وتحاول الرواية قراءة وعيهم قبل بناء السد وبعده بوصفه حدثاً يؤثّر بشكل كبير في سلوكهم ، وردود أفعالهم في ضوء الأحداث التي تتعرض لها الشخصيات . ورواية " أرض السيّاد " (1998) تحاول هي الأخرى التركيز على تلك الطبقة الفلاحين ، وما تعانيه من ظلم سياسي ناتج عن تصرف بعض المسؤولين وتدخّلهم في شؤونهم ؛ لتشكّل من هذه الرؤيا مساراً لوعي تلك الطبقة . وترصد رواية " ألوان الحبّ الثلاثة " (1973) التي كتبها العجيلي بالاشتراك مع أنور قصيباتي ، خيبة الإنسان العربي ، وفشل الوحدة في تحقيق أحلامه وآماله . أمّا رواية " قلوب على الأسلاك " (1974) فتختصّ بقراءة واقع الوحدة وسعي البرجوازية السوريّة إلى تحديد موقعها انطلاقاً من الظروف التي تتحكّم بها ؛ لنقدّم الرواية قراءة لوعي الطبقة البرجوازية عبر سلوك الشخصيات ، و تفسير أفعالها .

¹ جمال شحيّد . في البنيوية التركيبية ، دراسة في منهج لوسيان غولدمان ، دار ابن رشد، ط1، 1982، ص: 40 .

² المرجع السابق ، ص 40 .

³ حميد لحداني . النقد الروائي والإيديولوجيا ، من سوسولوجيا الرواية إلى سوسولوجيا النص الروائي ، المركز الثقافي العربي، بيروت

هذا ما تمثّله رواية " قلوب على الأسلاك" التي تأتي على شكل تسجيل ذكريات عاشها البطل في دمشق ، مؤكداً على أنها سجل ذكريات لا مذكرات ، وهو بذلك يحدّد الفرق بين جمع المذكرات وتنسيقها، وعملية سرد الذكريات التي تعطي مجالاً واسعاً للتعبير بطريقة تتداخل فيها المشاعر والعواطف بالأفكار في قوالب الأحداث ، وتسمح برصد تفاصيل ماضيه المنقضي هناك ، وهذا يوضح أنّ البطل أراد أن ((يحكي ماضيه كي يصير بوسعه التعبير عن حالة عامّة عرفها المجتمع السوري في مرحلة تاريخية مهمة عشية الانفصال بين سورية ومصر عام 1961)) [4] ؛ لذلك تأتي الرواية معبرة عن هذا الواقع بكلّ معطياته ، وراصدّة لتفاصيله دون أن نجد تطوّراً واضحاً في شخصيّة طارق عمران يعبر عن تفاعله أو اندماجه فيه ؛ ليصبح البطل عيناً تراقب وتكتب هذا الواقع بما تدور فيه من أحداث دون أن تخضع لمنظومة التتابع الزمني المعتاد ، ذلك ((لأنّ الذاكرة هي مفتاح لسيل من الأحداث المنقطعة والمتشابكة ، وهي قادرة على تحطيم قانونية الزمن ذات النسق النسبي المتتابع ، وبالتالي فهي قادرة على التقديم والتأخير)) [5] ، كما تعطي حريّة أوسع في الانتقال والاختيار بين صعوده مدارج البرجوازية والأجواء المخملية التي يوفّر لها موقعه الجديد في دمشق، وهبوطه أيضاً إلى الجحيم المزعوم على حدّ تعبير ممدوح ؛ صديقه ودليله في دمشق الذي يمكنه من اكتشاف وجه المدينة الآخر .

يمكن تقدير زمن الرواية بخمس سنوات ؛ أربعة أشهر منها هي زمن الأحداث التي قضاها طارق عمران في دمشق ، و تنقل لنا صورة عن علاقة الشخصيات بظروفها ، ثمّ تمتد أربع سنوات أو أكثر من عام 1961 إلى 1965 ، حيث تظهر صورة أخرى ترسم مصائر الشخصيات. هذا ما نجده في خاتمة الرواية ، يقول طارق : ((هذه الكلمات أكتبها اليوم ، آخر أيّام تشرين الأول ، أكتوبر ، سنة خمسة وستين وتسعمائة وألف، أختم بها الصفحات التي طالت وطالت والتي أردت لها أن تحوي ذكرى حياة عشتها خلال شهور قليلة ، لم تتعد الأربعة في عاصمة بلادي)) [6]. هذا الزمن الذي يشكّل مع المكان فضاء العمل الروائي ، يكتسب مفهوماً آخرًا عبر السنوات الأربعة التي تشكل محوراً تدور حوله أحداث ومصائر الشخصيات في الرواية التي يمكن تصوّرها وحسابها بالاستناد إلى للفترة الزمنية التي تختصرها الصفحات الأخيرة ؛ ليغدو الزمن حاملاً جديداً بعد أن كان مشروع التلّفريك هو الحامل الرئيس الذي تنتظم عليه أحداث الرواية والعلاقات التي تربط الشخصيات فيما بينهما من جهة ، وبظروفها من جهة ثانية ، وترسم لنا ملامح الوعي الممكن في رواية " قلوب على الأسلاك" . لكنّ هذه الملامح ترتبط بوعي الطبقة الفعلي لظروفها الاجتماعيّة والسياسيّة والمعيشيّة ، فهي تسعى إلى تجاوز ظروفها نحو مرحلة تضمن استمرارها وتطورها دون أن تفقد جوهرها الطبقي ؛ فالنفعيّة " الميكافيلية " التي تسيّر أفراد هذه الطبقة تشكّل ملمحاً من ملامح الوعي الفعلي ؛ لذلك تحشد المال، وتوظّف كلّ العلاقات الاجتماعيّة ، والشعر والفن . هذا ما يوضّحه عبد المجيد عمران في حديثه عن قيمة الفن التي تتحدّد بالتعمّ به لا بإنتاجه ، فيرفع شعار الفن للكسب ، ويرى أنّ ((الفن للفن خدعة قديمة لم تعد تنطلي على أحد . إنه مذهب يجعل الفن غاية بذاته بينما هو مجرد وسيلة)) [7]. تلك الميكافيلية النفعية هي التي تسيّر الطبقة البورجوازية نحو تحقيق غاياتها ؛ لتسقط اعتبارات كثيرة أمام الرغبة في تحقيق ما تصبو إليه من أهداف ، وتوظّف كل الأشياء ضماناً لمصلحتها .

⁴ إبراهيم علي نجيب . جماليات الرواية دراسة في الرواية الواقعية السورية المعاصرة ، دار الينايب ، دمشق ، ط1، 1994، ص:203.

⁵ عبد الرزاق العيد . في سيولوجيا النص الروائي ، دار الأهالي للنشر ، دمشق ، ط1، 1988، ص: 52.

⁶ العجيلي ، عبد السلام : قلوب على الأسلاك ، الأهلية للنشر والتوزيع ، بيروت ، 1974، ص: 427.

⁷ المصدر السابق ص 69 .

يتضح الوعي الفعلي أيضا في سعي البرجوازية السورية إلى إثبات وجودها ، وتعميق جذورها في التربة الوطنية ، لاسيما البرجوازية ذات المنبت الريفي الإقطاعي التي تعرضها الرواية ممثلة بشخصية المهندس عبد المجيد عمران الذي يمثل شكلاً من المزوجة بين البرجوازية والإقطاعية ؛ لذلك يلحّ على استقدام ابن أخيه طارق عمران ، من الريف الإقطاعي إلى المدينة البرجوازية ، ويقنع والده الإقطاعي بضرورة استقدامه ، وذلك ((من أجل تنشئة جديد من آل عمران قادر على اختلال المدينة))^[8] ، كما تتكشف ملامح البرجوازية السورية في رواية قلوب على الأسلاك ، عبر تهيئة الظرف السياسي القادر على إضاعة جوانبها المختلفة بما تتخذه من مواقف تبدو ثابتة ظاهرياً، لكنها ترتبط أشد الارتباط بالوضع السياسي الذي يتحكم بالاقتصاد ، بخلاف القاعدة العامة التي تربط السياسة بالاقتصاد ، ويبدو هذا واضحاً بسلوك الشخصيات التي تقدمها الرواية منتمية إلى هذه الطبقة ، فعبد المجيد عمران هو الوجه الأكثر وضوحاً ، والمعبر عن البرجوازية التي تحاول الثبات حتى آخر لحظة في وضع سياسي قلق.

هذه المحاولة لا تتعدى أن تكون شكلاً لها ، في حين أن الداخل ينزاح نحو اتخاذ مواقف أخرى تضمن لتلك الطبقة مصالحها ونفوذها أيضاً . هذا الانزياح الذي تترجمه الرواية بردود الفعل التي تنقسم إلى اتجاهين ، الهروب أو النفاق . وفي الحالتين تسيطر المصلحة الاقتصادية التي توجه ردود الفعل الواضحة في الرواية، والتي تحاول تقديم وجه آخر لهذا الانزياح ؛ ليبدو فعلاً انعكاسياً ضرورياً للحفاظ على القيم المهددة بالزوال بسبب الظرف السياسي القلق ، ولذلك فإن العجيلي ((يحاول أن يقدم صورة عن الجانب الآخر فيها ، فأراد أن يفسر هزيمتها على أنها عملية هروب بالقيم المهددة ، ولذا فإن عبد المجيد عندما يتخذ قراره بمغادرة البلاد ، يقدم موقفه على أنه دفاع عن قيمه المثلى التي انتهكت))^[9]. هذه الملامح التي تشكل الوعي الفعلي للطبقة البرجوازية ، هي التي تقودنا نحو الوعي الممكن الذي يتخذ هو الآخر عذّة ملامح يمكن تمييزها ؛ بالهروب ، والفشل ، والتكيف في مرحلة لاحقة.

1- الهروب :

يتخذ الانهيار في الرواية أشكالاً متعددة ، تظهر في الرغبة في الفرار ، أو الهجرة من البلاد التي تغلي فوق نار الانفصال المترقب ، ويتضح هذا الانهيار عبر العجز الذي يصيب بعض الشخصيات ، والفشل الذي يلحق بعضها الآخر ، لتكون هذه الأشكال بمجموعها صورة لواقع المجتمع الدمشقي قبيل الانفصال وبعده ، وهذه الصورة تتطوي ملامحها على رؤية تبدو أقرب إلى المساوية التي تخيم بظلالها الكثيفة والقائمة على واقع الشخصيات التي تدور في فلك تلك الظروف السائدة آنذاك . فما يقوم به عبد المجيد عمران تضعه الرواية في خانة الهجرة التي تأتي بوصفها خياراً لا بديل عنه ؛ هذا الخيار الذي يتضح بعد فشله في تحقيق ما يصبو إليه ، وإن كانت الرواية عاجزة عن توضيح ما تسعى إليه البرجوازية ممثلة بعبد المجيد عمران ، فهي تسعى نحو قيم نبيلة مدفوعة بطموح عظيم لتحديث البلاد من الناحية العمرانية بشكل خاص ، ولكنها لا تتورّع في الوقت ذاته عن استخدام كل الوسائل الممكنة للوصول إلى غايتها . وهذا يوضح التناقض في الغاية ذاتها ، فتبدو حيناً نبيلة سامية مترفعة عن كل مكسب ، ووجهها الآخر يسعى إلى تحقيق المكاسب المادية والمجد والشهرة، كما أنّ هروبها هو للحفاظ على القيم المهددة بالزوال ، وللحفاظ على المصالح الشخصية، وهذه المزوجة تكتسب بظاهرها شكلاً يبدو منطقيًا في أنّ من حقّ هذا الطبقة أن تحتفظ بحقوقها الخاصة ، وأن تهرب بها لأن المنطق يفترض ذلك ؛ إذ ليس من المعقول أن تضحي تلك

⁸ المصدر السابق ص 12.

⁹ العيد ، عبد الرزاق : في سيبيولوجيا النص الروائي ، ص 73 .

الطبقة بمكتسباتها المادية في سبيل الوطن الذي لا يعدو أن يكون هو الآخر مستلباً من جهات أخرى في تلك الفترة . وبالمقابل فلا مسوّغ لوجودها في وضع يهدد قيمها وجوهرها؛ لتدفع الرواية بهذا القرار نحو النهاية التي تظهر لنا هذا المسوّغ ، بل وتؤكد على شرعيته و نجاته ، فيظهر عبد المجيد عمران وقد تقلد مركزاً مرموقاً في بلدٍ متقدم ومتحضر ؛ لذلك يقول طارق: ((عمي الثري الكبير والمقاوم العظيم عبد المجيد عمران ، ناجح اليوم في عمله الذي تمركز في بلد متقدم وبعيد...بعيد عن القلق ولكنه بعيد كذلك عن وطنه ، وعن كل ما كوّنه في وطنه))^[10]. إنّ هذه الإشارة تؤكد أنّ البلاد قد ضيّعت على نفسها فرصة مهمة كانت ستدفع بعجلة التقدم والتطور، ولكنّ هذا المشروع يفشل لأسباب مختلفة تتعلق بالوضع السياسي خاصة ، فكان الهروب حلاً يكتسب قبوله وشرعيته لعدم وجود حلولٍ أخرى .

هروب آخر يتمثل بطلاق نهاد وزوجها الثاني ، حيث تهجر البلاد هي الأخرى ، ولكن لأسباب تبدو مختلفة في ظاهرها عن الأسباب التي دفعت عبد المجيد عمران للهجرة ، إنها ترحل مع زوجها الجديد زكي بيه الذي كان خلال الرواية عين القاهرة الساهرة في سورية ، الذي حاول دائماً بالتعاون مع حليم رمزي زوج نهاد الأول إعاقته تنفيذ مشروع التلغريك . هذا الزواج الذي يقوم أيضاً على مبدأ الهروب نحو الأفضل و الأسلم ، حيث لم تعد البرجوازية السورية قادرة على تحقيق طموحات نهاد ، والتي يمثلها زوجها الذي كانت تسعى به نحو الشهرة ، وهذا ما تقوله نهاد في حديثها الصريح إلى طارق : ((حيي للشهرة صوراً لي أن أبحث عنها في مجالي القوة ، وأن أكون على جمالي و ثراء زوجي ذات مركز مستقل عن جمالي و ثراء زوجي . كيف؟...فكرت ... طمحت في أن أحتل مرتبة قيادية في تنظيمات حياتنا السياسية الجديدة))^[11] ؛ لذلك نجدها حينما حدث الانفصال تترك زوجها ، وتلحق بزكي بيه ، فهو القادر على ضمان ما تصبو إليه هي الأخرى ، ولكن ليس في سورية ، بل في مصر حيث الظروف هناك كانت تشير بما يساعدها على تحقيق ما تريد . وهذا الهروب يبرز أيضاً بوصفه حلاً مقبولاً أيضاً إذا ما وضع بعين الاعتبار أنّ الوضع السياسي في سورية لا يستطيع الحفاظ على القيم والمصالح التي تسعى إليها نهاد باعتبارها فرداً من أفراد تلك الطبقة الاجتماعية .

ويمثل الانزواء هروباً أيضاً ، ويظهر في ردة فعل شخصية طارق التي تبدو خلال الرواية هشة ، تتفاعل مع ما يجري من الخارج ، لا من الداخل ؛ لذلك تنسحب من موقعها الجديد إلى موقعها القديم الذي يضمن لها ثباتها هي الأخرى ؛ ليكتفي طارق برصد ما حدث في فترة إقامته في دمشق . هذا الرصد الذي يمتزج فيه التاريخ مع الحياة ، دون أن يقع في فخّ التأريخ ؛ فهو في قريته الصغيرة يستلذ باجترار ما حدث معه ؛ ليأتي ويعود دون أن يكون في سلوكه ما يوحي بتعبير يمسّ تكوينه . والخيبة التي يعاني منها تدفعه إلى الكتابة بوصفه وسيلة للهروب أيضاً ؛ ليعبر عن ذلك بقوله : ((و حين أرى هذا الهروب المستديم من كوارث يضيق صدري ، فألجأ إلى القلم والورق متعزياً . أتعزّي بالكتابة .. أهرب إليها . أليس هذا هو الهروب الحقيقي ، الهروب الكبير؟))^[12] .

2- الفشل :

تغلف الخيبة واقع الشخصيات في الرواية التي تتخذ من الهروب أو الانزواء والعزلة حلاً لمواجهة الظروف التي استجدت في تلك الفترة التي استمرت نحو أربع سنوات ، بين انتهاء زمن الأحداث الفعلي التي يقيدّها

¹⁰ المصدر السابق نفسه ، ص: 428 .

¹¹ المصدر السابق نفسه ، ص: 283 .

¹² المصدر السابق نفسه ، ص: 429 .

طارق عمران ، وسنة 1965 التي ينهي بها حديثه عن إقامته في ربوع دمشق . تلك الفترة الزمنية التي تستقرُّ بها الظروف ؛ لتظهر صورة تلك الطبقة الاجتماعية واضحة ، ومستقرّة وقد قرّرت كلَّ شخصيّة من الشخصيات التي تنتمي إلى تلك الطبقة ما يناسبها . فهروب عبد المجيد يوازي عودة طارق إلى قريته الصغيرة ، ويوازي أيضا زواج نهاد من زكي بيه وهجرتها إلى مصر . وهذه الأفعال تصدر عن خيبة أمل تلك الطبقة وفشلها في ما تسعى إليه من أهداف وغايات .

يأتي الفشل نتيجة ظروف متعدّدة ، منها صعود قوى اجتماعية وسياسية أخرى ، تناقض في أهدافها ما تسعى إليه البرجوازية ، وإن حاولت الرواية التأكيد على أنّ الغايات واحدة على الرغم من اختلاف الوسائل ، فالبرجوازية كغيرها من الطبقات الاجتماعية الأخرى ، لها مساعٍ وطنية لاستلام زمام السلطة ؛ لذلك نجدتها تقترح وجهاً للتطور والتحديث الذي يتجلّى بمشروع التفريك أو غيره من المشروعات ، والتي قد تبدو غير نافعة للمواطن في تلك الفترة إذا ما قيست بمشاريع تحتاجها البلاد الناهضة حديثاً حسب رأي القوى الأخرى . ومهما تكن غاية تلك الطبقة ، فإنّ الفشل هو النتيجة التي تسعى الطبقة البرجوازية إلى تجاوزها ، والتأقلم مع واقع الحال بما يخفف من تلك الصدمة التي تعرّضت لها ، والانتكاسة التي أصابها ، وبما يضمن لها الثبات بوصفها طريقة تكفل حمايتها من أيّ تهديد قد يطال جوهرها الطبقي .

تتمثّل الخيبة في الرواية عبر ملامح عدّة ، أهمّها فشل مشروع البرجوازية في السعي نحو التحديث، ذلك الفشل الذي ظهر في وقف تنفيذ مشروع التفريك الذي عقد عليه طارق عمران ومن ورائه عمه عبد المجيد كل الآمال ؛ ليحقق لهما المجد والشهرة ، والمكاسب الماديّة . وهذا الإيقاف جاء برغبة معلنة من عبد المجيد ، على الرغم من أنّه قد حصل على الموافقة . ولكنّ قراءته للوضع السياسي المتردّي في تلك الفترة ساقته إلى هذا القرار ؛ لذلك نراه يعيد حساباته ، ويحدّث بذلك ابن أخيه : ((لو بدأنا بتنفيذ المشروع فإننا سنصاب بكارثة ماديّة تتبع الكارثة المعنويّة التي سنأتي من تفكك وضعنا السياسي الذي نحن فيه الآن))^[13] . هذه الخيبة تعكس فشل البرجوازية عن تحقيق أحلامها وأهدافها التي تطمح إليها، وإنّ قرار الهجرة الذي يتّخذه عبد المجيد ينبع من إحساسه بقرب الانفصال الذي لا يتمناه على الرغم من كل العراقيل والمصاعب التي تضعها حكومة الوحدة والمتفدّون فيها . فالوحدة هي الحلم الذي يسعى إليه عبد المجيد ، وهذا ما يعبر عنه حينما يعدّ نفسه من الجيل الذي آمن بالوحدة ، وحلم بتحقيقها ، ولكن بين تحقق الحلم ، وانكساره مسافة تستلزم منه التّفكّر بمصالحه الخاصة التي يجب أن تكون فوق كلّ غاية ، وخارج كل الظروف التي قد تهددها .

ملمح آخر من ملامح الفشل الذي تعرض له الرواية ، هو فشل طارق في علاقاته العاطفيّة مع النساء اللاتي التقى بهنّ في دمشق، بدءاً من هدى التي تزوّجت من عمه الثري وهاجرت معه، إلى ماجدة ، الفتاة المراهقة التي تخلّت عنه عندما وجدت أنّه غير قادر على أن يقدّم لها الحب على طريقتها العصريّة ، مروراً بنهاد التي لم تستطع الاستحواذ على قلبه ، وظلّت علاقته بها غائمة بين المصلحة التي سعى كلّ منهما إليها عبر الآخر ، والتي تتعلق بمشروع التفريك ، و الشعر والأحاسيس التي كانت تسير أهواءهم وميولهم الخاصّة ، وانتهاءً بصفيّة المرأة الوحيدة التي أحبّها طارق، واستطاعت أن تحرره من لجام الصمت الذي منعه من نظم الشعر خلال إقامته في دمشق، ولكنها تخلّت هي الأخرى عنه بعد أن أدركت أن مشروع التفريك قد تمّ إيقاف تنفيذه . وهذا الفشل العاطفي

¹³ المصدر السابق نفسه ، ص: 322.

الذي مُني به طارق مع النساء جعله يفضل الانزواء والرجوع إلى القرية .التي تستطيع أن تؤمن له الملجأ للفرار والهروب من الخيبة التي تعرّض لها ، وهذا الرجوع يتضافر مع رغبته في الكتابة التي يعدّها وسيلة للهروب . إنَّ الفشل يخيم على حياة الشخصيات جميعها في الرواية ، على اختلاف مشاربها وانتماءاتها الطبقيّة والسياسيّة . فما يحدث مع عبد المجيد أو طارق أو نهاد هو ذاته ما يحدث مع بقية الشخصيات ، وإن كان يتخذ الفشل عند البقية شكل العجز كما حدث مع ممدوح ، وبقية رواد مقهى البرازيل والحانة ، وإن لم تتم الإشارة إليهم في الخاتمة التي تعدُّ خلاصة لما حدث في تلك السنوات. فممدوح يرسل طارق ليخبره دوماً بأنه مازال كما هو دون أيّ تغيير ، ويرى أنّ هروب الجميع هو ذاته الخداع الذي يراه طارق ، ويرى أنّ صموده ، وصمود الكثير ممن هم مثله ليس شجاعةً ، بل عجز لأنه لا يمتلك أيّ خيار في ذلك ، فنراه يحدث طارقاً بهذا ، فيقول له : ((ليس عندي ضيعة مثل ضيعتك ولا أهل مثل أهلك لأهرب بطريقة يراني الناس فيها منتصراً ، ولأربح ويراني الناس مضحياً....))^[14] . وهذا القول يضع يده على أنّ المجموع العام حسب ما تعرضه الرواية لا يملك القدرة على تغيير واقعه فينحاز إلى الصمت والمراوحة ، فهو ليس برجوازيّاً ليرتدّ إلى جذوره الإقطاعيّة إن لزم الأمر كما فعل طارق ، أو ليهاجر بماله كما فعل عبد المجيد فيبدو مضحياً ؛ لأن مشروع التقدمي قد فشل ، ولم يبق له سوى التضحية والهروب حفاظاً على القيم المهدّدة . إنّ قول ممدوح بصور واقع تلك الطبقة بخاصّة ، وواقع المجتمع الدمشقي بعامة. بما يعرضه من أشكال للخيبة التي وقعت على الجميع بعد أن انكسر الحلم الوحدوي ، وضاعت الأهداف في معرض السعي إلى تحقيقها .

3- التكيّف :

يؤدي الزمن دوراً مهماً في وعي الطبقة البرجوازيّة التي تصاب بخيبة أمل كبيرة تحول بينها وبين رغباتها في إتمام مشاريعها التي تسعى إلى تحقيقها بغض النظر عن نبل هذه الغايات أو دناءتها كما تمثّلها الرواية عبر طموح بعض عناصرها نحو تحديث البلاد وإعمارها بطريقتها الخاصّة ؛ لذلك فما تقوم به نتيجة الوضع القلق الذي كان سائداً يختصر بالانتظار ، فالزمن هو الكفيل بالتغيير ، وعليها أن تضمن مصالحها ، وتحافظ في هذا الوضع على قيمها الخاصّة . مع ضرورة الالتزام بالانتظار ؛ لأنّه الحل السلمي الذي تطرحه الرواية عبر سلوك تلك الطبقة لمواجهة الصراع على اختلاف مستوياته ، وتجنّب الصراع الدموي الذي قد يؤدي إلى تغيير ملامح المجتمع ، ويمس بذلك بنية الطبقة البرجوازيّة مما سيؤدي إلى تشوّهات قد تهدّد وجودها ؛ لذلك لابدّ من الانتظار مع محاولة المحافظة على توازن الطبقة ، هذه المحاولة التي تظهرها الرواية بأشكال مختلفة عبر تحولات خارجيّة تتخذ شكلاً مقبولاً يضمن لها التواصل والارتباط مع بنية المجتمع بعامة ، والتكيّف مع الوضع الجديد ، دون أن تظال هذه التحولات جوهر تلك الطبقة أو خصوصيتها الطبقيّة.

وتظهر أوّل هذه التحولات الشكليّة المرتبطة بالزمن في الرواية بالحديث الذي دار بين طارق وعمه الذي يعد مثلاً نموذجياً يعبر عن سلوك تلك الطبقة ؛ ذلك الحديث الذي تناول حادثة مهمّة يعرضها العم عن الخطب المثيرة والمحتجة في المساجد ، والثورة التي كادت أن تقوم في تلك الفترة حين تناهى إلى مسامع الناس أنّ سيدة من أسرة كبيرة رقصت في نادي ضباط الحامية الفرنسيّة، ويقارن هذه الحادثة التي أثارت هذا الاستنكار والاحتجاج بحفلة "الكوكتيل" التي تقام في بيت حلّيم رمزي والتي قد تتحول إلى حفلة راقصة على الرغم من المنبت المحافظ الذي نشأ فيه والمتعلّق بالعبادات والتقاليد و الأعراف القديمة ، فيطرح عبد المجيد فكرة الانتظار بوصفه حلّاً سلميّاً

¹⁴ المصدر السابق نفسه ، ص: 429 .

بدلاً من أن يضحى الناس بأرواحهم من أجل أفكار أو مبادئ سيكون الزمن كفيلاً باختفاء بعضها ، وظهور بعضها الآخر ، ويعدُّ هذه التضحية التي يقوم بها هؤلاء الناس ، وتصدّي طرف آخر لهم دليلاً على قلة العقل على حدّ قوله : ((لو صبر هؤلاء وأولئك على الزمن لحلّ مشاكلهم دون أن يحوج بعضهم إلى أن يموت ، وبعضهم إلى أن يلبّخ أيديه بالدماء))^[15] . هذا الرأي الذي يبدو مستغرباً قائماً على السخرية والاستهزاء في ظاهره ، ينقل تعويل هؤلاء الأشخاص على الزمن ، ولابدّ من الانتظار والهدوء لتحلّ المشاكل نفسها بنفسها دون الحاجة إلى التخلّ فيها. ويعدُّ المادة المسوّغ المنطقي الوحيد للقتل ، إذا كان لابدّ من القتل ، بدلاً من إهدار الدماء من أجل الأوهام كما يفعل الشعراء .

هذا الانتظار الذي يطلبه عبد المجيد يشكّل قناة تسير فيها تطّعات تلك الطبقة ، تلك التطلّعات التي تعبّر عن فهمهم لطبيعة ظروفهم ، ووعيهم المطلق لواقعهم ؛ ليبدو الانتظار ملمحاً مهماً من ملامح وعيها الممكن بوصفه الحل الأفضل للمحافظة على الثبات ، والهدوء في فترة زمنية تعجّ بالأزمات التي لا يمكن حساب نتائجها إذا ما بادرت تلك الطبقة بالقيام بتصرفات متهورة قد تلغي وجودها الطبقي، وعلى البرجوازية أن تأخذ شكلاً يناسب وعاء تلك الأزمات التي تعصف بالبلاد بين حين وآخر، بما يساعدها على تجاوزها ، وليكون التكيف مع الوضع الجديد هو الشكل الضامن للمصالح ، وللمحافظة على البنية الطبقيّة للبرجوازية .

إنّ التكيف والتلاؤم الذي يُطرح بوصفه شكلاً أولاً لسعي تلك الطبقة ، يتّخذ بدوره هو الآخر أشكالاً عديدة نجدها في الرواية كمقترحات لا تلبث أن تصبح واقعاً في مرحلة لاحقة ، حيث نجد محاولات لتصنيف تلك الفئات، فهناك الجيل الجديد ؛ ماجدة وطارق عمران، والجيل القديم المنقسم بدوره إلى فئتين ؛ الفئة الأولى التي ينضوي تحت لوائها الانتهازيون والمدلسون والمنافقون ، والفئة التي تهرب من البلاد كي تأمن النجاة والسلامة للمحافظة على منجزاتها بعد أن أدركت عجزها عن البقاء بالطريقة التي تريدها .

والجيل الأوّل ، هو القادر على التكيف مع معطيات الوضع الجديد ، فماجدة فتاة في السابعة عشرة من العمر ، تظهر في الرواية ثائرة على كلّ العادات والتقاليد القديمة التي تراها باليةً ومتخلّفة ، وتحلم بإقامة علاقة عاطفية مع شاب مثل طارق كما تفعل صديقاتها في المدرسة ، وهي لا تشعر بالحرّج من الإفصاح عن رغبتها، بل وتدافع عنها بوصفها حقاً مشروعاً لها. ولكنّها تجد أنّ رغباتها ليست مفهومة من الآخرين الذين يقيدونها بالتزامهم المطلق بتلك العادات والأفكار الجاهزة حسب رأيها ، لذلك فهي ستفعل ما هي مؤمنة به . وهذه الروح الثوريّة التي تظهر بها ماجدة هي التي تجعلها أكثر قدرة على التكيف مع الوضع الجديد المضطرب والذي يهدد بالنسف والتغيير ، وتتمثّل آراء معلمتها صفيّة في ضرورة الثبات على الآراء، ومواجهة الظروف بدلاً من الفرار كما تفعل الجرذان حينما تغرق السفينة ، ولكنّ هذه الثوريّة سرعان ما تتحوّل إلى هدوء واستسلام لواقع الحال بعد أربع سنوات ، حيث تظهر ماجدة كما يصفها طارق قائلاً : ((في المجالات وعلى عينيها نظارتان سميكتان ، توحيان بالانكباب على الدرس ، أو أقرأ عنها أخباراً بأنّها أصبحت في الطليعة...في طليعة المنخرطات في عمل منسق، ذي تنظيم روتيني مخطط))^[16] . وهذا التغيير ينطوي على ملمح من ملامح التكيف التي عرضتها الرواية بوصفه سمة مميزة للجيل الجديد الذي يمكن تسميته ترويضاً ، فبعد أن كانت الروح الثورية تملأ نفس تلك الفتاة المراهقة ، نجدها وقد روّضت ، وأصبحت واحدة من المجموع الذي راح يتكيّف مع واقعه ، مما يثير حفيظة طارق

¹⁵ المصدر السابق نفسه ، ص: 28 .

¹⁶ المصدر السابق ، ص 428.

الذي يرى في صورتها الجديدة خداعاً وزيفاً ينفى حقيقة تلك الروح التي كانت تظهر في تصرفاتها وآرائها في الحب والحياة بعامة .

وجه آخر للتكيف يبدو من خلال تصرفات الجيل القديم وسلوكه الذي ينضوي تحت لوائه عبد المجيد عمران، وذلك عبر الهجرة التي تعدّ بحدّ ذاتها نوعاً من التكيف والتلاؤم مع مقتضيات الحال ، هذه الهجرة التي تأتي صيغة مناسبة للفرار أو الانسحاب حفاظاً على الكرامة الشخصية ، كما يقول عبد المجيد عمران في حديثه حول هذه النقطة : ((أمّا الصادقون مع أنفسهم فلا يجدون غير الابتعاد بما يحفظ لهم مكتسباتهم السالفة التي تصالبت عليها مفاصلهمبعدهم عن التيار قد يكون مجرد انطواء على النفس أو عزلة في البيت ، وقد تكون انسحاباً بما خفّ حمله وغلا ثمنه))^[17]. إنّ هذا الهرب الذي يأتي للتلاؤم مع مقتضيات الحال بناءً على استعداد كلّ جيل حسب بنيته وتكوينه ومرونة مفاصله كما تظهر الرواية ، وهذا ما حدث بعد أن غرقت سفينة الوحدة ، وتغيرت الأحوال بما لا يتفق ومصالح البرجوازية ومشاريعها التي كانت تعدّ بها ، وغاياتها أيّاً كانت ؛ لذلك يهاجر عبد المجيد عمران مع زوجته هدى بعد أن نقل أمواله ومقتنياته الثمينة إلى الخارج ، فتظهر لنا الرواية صحّة رأيه ، فقد استطاع أن يحافظ على نجاح عمله في بلد متقدم وبعيد عن الوطن والقلق الذي كان يعيشه بسبب وضع البلاد المضطرب آنذاك .

هذه الوجه الذي يتلاءم مع مقتضيات الحال بالفرار يتضافر مع وجه آخر يقاوم تلك التغيرات التي حدثت بالتدليس والنفاق ، والانحناء لرياح العواصف ، وهذا ينطبق على سلوك الدكتور زين العابدين وإن لم تظهره الرواية برجوازيّاً ، كما يشبه إلى حدّ بعيد تصرف نهاد التي تركت زوجها حلّيم رمزي ، وتزوجت بزكي بيه وانتقلت للعيش معه في مصر ، و((الذي أصبح بعد الانفصال محافظاً أو وكيل وزارة فيما تبقى من الجمهورية العربية المتحدة يحمل اسمها))^[18].

إنّ هذا يؤكد صحّة رؤية عبد المجيد عمران للواقع والتكيف معه ، وذلك في طرح نظرية التكيف والملاءمة، والانتظار لتسوية القضايا التي تشكّل محورا للصراع على اختلاف مستوياته فالزمن هو الحل المناسب للتخلّص من صراع الأجيال ، والصراع الطبقي وهو القناة التي تسير فيها تطلعات الجميع لفرض أعراف وإزاحة أعراف أخرى. و هو الذي يضمن الثبات لتلك الطبقة بتجنّبها للصدمات المباشرة التي قد تفقدها طابعها الطبقي المميز لها، لتكون التحولات خارجية لا تمس جوهرها الأصلي ، ولا تعدو أن تكون محاولات للتكيف مع مقتضيات الظروف المستجدة ، والتكيف يكون بالفرار أو الانسحاب أو الانزواء والعزلة ، كما يكون في التدليس والنفاق ، أو التلاؤم مع الشكل الجديد . وهذه النظرة التي يقدمها عبد المجيد تبدو صحيحة كما تقدمها الرواية بعد مرور أربع سنوات على الانفصال، والتي يرى فيها طارق صورة للخداع الذي وقعوا فيه جميعاً لأنّه يشكّل العين التي ترى وتنتقل ما تراه أكثر من تفاعلها بما حولها ، وإن كانت تصرفاته تضعه في تصنيف آخر كوسيط بين الجيل الجديد الممتلئ بماجدة وممدوح ، أو الجيل القديم ممثلاً بعبد المجيد عمران ونهاد وحلّيم رمزي وزكي بيه ، ليكون بذلك الجيل الذي يحاول رقع الفتق، ((وهذه هي رؤية الوضع الطبقي في مجتمعنا في (قلوب على الأسلاك) ، وهي رؤية قلما تطالعنا بها رواية سورية أخرى بمثل هذا الوضوح والإعلان عن سلوكية ومواقف الطبقات العليا))^[19]. وهذا ما يفسر سلوك الشخصيات في الرواية وتصرفاتها التي تتفق مع ظروف البلاد في تلك الفترة ، وتفسّر أيضاً رغبة العجيلي ذاته في

¹⁷ المصدر السابق ، ص 355.

¹⁸ المصدر السابق نفسه ، ص: 428 .

¹⁹ سليمان، نبيل : الرواية السورية 1967-1977، وزارة الثقافة ، دمشق ، 1982، ص: 233.

توجيه النقد إلى الممارسات الخاطئة في عهد الوحدة التي جعلت من الانفصال حدثاً مؤكداً ؛ لذلك ((فإن الروائي يمزج النقد بموقف الطبقيّة التي سعت إلى تأييد الوحدة أول عهدها ، ثمّ سعت إلى اتّخاذ قرار الانسحاب وتهريب أموالها للخارج))^[20] .

إنّ دراسة هذه الملامح التي تتشكّل الوعي الفعلي ، والوعي الممكن في " قلوب على الأسلاك" تسهم في بلورة رؤيا الطبقة البرجوازيّة السوريّة في عهد الوحدة ، قبيل الانفصال هذه الرؤيا التي تجسّد تطلعات الطبقة وسعيها إلى فهم واقعها بما يقودها إلى تجسيد تطلعاتها ورؤاها . هذا السعي يوضّح وعي الطبقة البرجوازيّة الذي يتركّب من اجتماع تلك الملامح ؛ فالنفعيّة والسعي إلى تأصيل وجودها على الخريطة الوطنيّة للبلاد ، وتعبير الغايات والقيم بتغيّر الظروف . هذه السمات المجتمعة تشكّل الوعي الفعلي الذي تصدر عنه البرجوازيّة في تلك الفترة التاريخيّة ؛ لذلك فإنّ هذا الفهم لواقع الطبقة يقودها إلى اتّخاذ موقع جديد بعد خضوعها لجملة من المتغيرات التي بدأت تلوح في أفق الفترة التي تشهد تحولات على الصعيدين الاجتماعي والسياسي ، و الموقع الذي تختاره مرغمة في سبيل المحافظة على مستواها الاجتماعي ونفوذها الاقتصادي والسياسي وضمان مصالحها؛ فالهروب تعبير عن محاولة التأقلم والتكيف مع الوضع الجديد كما أنّ الفشل الذي يسيطر على أفراد الطبقة في تحقيق أحلامها ، ومشاريعها التي عرضتها الرواية مثل مشروع التلفريك الذي تتعلّق عليه قلوب الجميع . إنّ الوعي الممكن الذي يتجلّى واضحاً في اختيار الطبقة البرجوازيّة ما يناسبها لتجاوز الفشل والخيبة ، ولتحقيق الثبات والاستقرار في ظلّ الوضع السياسي القلق الذي يسيطر على البلاد . إنّها تختار الانتظار والانحناء للعاصفة لتحافظ على جوهرها الطبقي ، وتتلوّن بملامح مختلفة لا تمس هذا الجوهر ، بل تقتصر على تغيير شكلها بما يقتضيه الوضع الجديد .

يقودنا هذا إلى أنّ البرجوازيّة السوريّة رهنت مستقبل البلاد برؤيتها الخاصّة التي تنطلق من تغيير وجه المدينة ، باقتراح مشاريع تعبّر عن نهضة عمرانية في ظلّ دولة الوحدة ، وتعدّ بها البرجوازيّة عبر تقديم مشروع التلفريك" في رواية " قلوب على الأسلاك " التي تقصر رؤيا هذه الطبقة بالنهضة العمرانية، وتربط بين مجد أفراد الطبقة الشخصي ومصالحهم الخاصّة ، وهذا المشروع الذي يعدّ مثلاً عن ازدهار البلاد وتقدّمها . ثم لا تلبث أن تتخلّى عن ازدهار البلاد المنتظر في الوقت الذي تتهدد فيه مصالحها وقيمها النابعة من تكوينها الطبقي ؛ لذلك تتوقّف عن الحركة لتدخل في طور السبات الجزئي بسعيها إلى الثبات والسكون في ظلّ وضع قلق ومضطرب .

هذا الانحياز الشديد إلى الثبات وتعليق حركتها فترة من الزمن يعبر عن وعي الطبقة لواقعها وسعيها إلى التكيف مع الظروف ، والخضوع الظاهري لتلك الظروف بطريقة لا تتعارض مع مبادئها وقيمها الخاصّة ، وبطريقة تلبّي طموحاتها وأهدافها دون أن تنجرف في تيار الحركة المضطربة بما قد يؤدي إلى فقدانها لجوهرها . ومهما يكن حال تلك الطبقة فإنها تظهر واعية تماماً لواقعها ، قادرة على فهم ظروفها ، وإدراك غاياتها بغض النظر عن قيمتها الأخلاقية سواء أكانت للحفاظ على مصالحها أم لضمان مكاسبها بعد أن أصابها الخيبة بسبب الانفصال فأثرت الانزواء أو الهجرة للحفاظ على قيمها ، وللتكيف مع الوضع الجديد .

²⁰ عبد الغني ، مصطفى : الاتجاه القومي في الرواية ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، العدد 188 ، 1994 ، ص 136 .

الاستنتاجات والتوصيات:

- تعرضت الدراسة إلى الوعي الممكن ؛ لأنه المعبر عن التغييرات التي تتعرض لها تلك الطبقة، وما يقوم به أبنائها للمحافظة على جوهرها الفعلي . ويمكن حصر نتائج الدراسة بما يلي :
- 1- تشكل رواية " قلوب على الأسلاك " تجسيدا حيا لوعي الطبقة البرجوازية ، وتعبّر عن فهمها لواقعها ، وتغييره بما لا يتعارض مع تكوينها الطبقي . ويبدو وعي الطبقة مميزاً بلامح عديدة ، فهي تسعى إلى غاياتها دون الالتفات إلى مشروعية المسائل ، كما تسعى إلى تأكيد وجودها على الخريطة الوطنية ، وتتميز أيضاً بتغيير موقعها بتغيير الظروف التي تخضع لها بطريقة تسهم في تحقيق ما تصبو إليه .
 - 2- تتجلى ملامح البرجوازية السورية في رواية " قلوب على الأسلاك " عبر تهيئة الظرف السياسي القادر على إضاءة جوانبها كافة ، وربط الظرف السياسي العام بمشروع " التليفريك " الذي يشكل حاملاً رئيسياً للأحداث ، وفضاء تتحرك فيه شخصيات الرواية التي تنتمي إلى الطبقة البرجوازية .
 - 3- إن إيقاف تنفيذ مشروع التليفريك كان سبباً قوياً ليخضع تلك الطبقة إلى تغيير في مواقفها وردود فعلها ، بعد فشلها في تحقيق التحديث العمراني الذي كانت تراه غاية عليا ؛ يتداخل فيها النبيل مع الدنيء بشكل متناقض في الرواية .
 - 4- يبدو وعي هذه الطبقة بتخليها عن حلمها الوطني ؛ لتهاجر أو تنزوي وتت عزل أو تعود إلى مواقعها السابقة للحفاظ على تلك المصالح ، أو تهرب بالقيم المهدة وسط العواصف السياسية التي كانت تضرب البلاد في تلك الفترة ، ففشل الوحدة من جهة والمشروع البرجوازي من جهة أخرى ، يقود إلى الانهيار الذي سيؤدي إلى تشوهات حادة في بيئة الطبقة الاجتماعية ؛ لذلك لا بد من مواجهته بالهدوء والانتظار ، والتكيف مع الواقع الجديد عبر الاندماج الشكلي ، أو الهروب والهجرة، أو الخروج من الساحة التي تتسجها الظروف السياسية والفكرية والاقتصادية الجديدة .
 - 5- إن الثبات الذي تختاره البرجوازية نابع من رغبتها في الانحناء أمام رياح العاصفة المنتظرة آنذاك . هذا الثبات يعبر عن وعي الطبقة لواقعها ، فهي تقرر مواجهة الوضع المضطرب بالهدوء وتعلق حركتها حيناً من الزمن ، قبل أن تعود من جديد لفرص وجودها بما تمتلكه من خيارات تضمن سلامة جوهرها الطبقي . استطاعت رواية " قلوب على الأسلاك " أن تقدم لنا أنموذجاً يعبر عن واقع البرجوازية في عهد الوحدة ، وبعد الانفصال . فكانت الرواية تعبيراً عن وعي هذه الطبقة الاجتماعية وسعيها إلى تحديد موقعها والحفاظ على تكوينها الفكري والاجتماعي الذي يميزها من غيرها .

المراجع:

المصادر:

1- العجيلي ، عبد السلام . " قلوب على الأسلاك " . الأهلية للنشر والتوزيع ، بيروت ، ط1، 1974.

المراجع:

- 1- إبراهيم ، علي نجيب . جماليات الرواية (دراسة في الرواية الواقعية السورية المعاصرة) . دار الينابيع. دمشق. ط1، 1994.
- 2- شحيّد ، جمال . في البنيوية التركيبية (دراسة في منهج لوسيان غولدمان) . دار ابن رشد، ط1، 1982.
- 3- عبد الغني ، مصطفى . الاتجاه القومي في الرواية . سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، العدد 188، 1994.
- 4- العيد ، عبد الرزاق . في سيولوجيا النص الروائي . دار الأهالي للنشر ، دمشق ، ط1، 1988.
- 5- سليمان، نبيل . الرواية السورية 1967-1977. وزارة الثقافة ، دمشق ، 1982.
- 6- لحداني ، حميد. النقد الروائي والإيديولوجيا (من سوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا النص الروائي). المركز الثقافي العربي، بيروت – الدار البيضاء ، ط1، 1990.